سيمياء العدم في شعر عبد الأمير جرص: دراسة في ضوء النقد الثقافي

The Semiotics of Nothingness in the Poetry of Abdul Amir Jaris: A Study in the Light of Cultural Criticism

أ. **سامر حبيب خضير**: مدرس مساعد في الأدب الحديث (الشعر الحديث)، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، العراق.

Mr. Samer Habib Khudier: Assistant Lecturer at Modern Literature (Modern Poetry), Faculty of Arts, University of Baghdad, Baghdad, Iraq.

Email: samerhabib754@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v5i9.1593

تاريخ الاستلام:	2025-07-03	تاريخ القبول:	2025-08-17	تاريخ النشر	2025-09-01

الملخص:

تتناول هذه الدراسة سيمياء العدم في شعر عبد الأمير جرص، في ضوء مقاربة النقد الثقافي، بوصفها ظاهرة دلالية وجمالية تكشف عن أبعاد عميقة في التجربة الشعرية المعاصرة. فقد أظهرت الدراسة أن العدم لدى جرص لا يقتصر على كونه مفهومًا وجوديًا، بل يتحوّل إلى بنية رمزية وثقافية تعكس قلق الذات واغترابها في سياقات اجتماعية وسياسية متأزمة. اعتمد البحث على المنهج السيميائي الثقافي للكشف عن الرموز والإشارات التي تحيل إلى الغياب والموت والخراب واليأس والصمت، وما تحمله من طاقة دلالية متجددة. وتوصلت النتائج إلى أن شعر جرص يوظّف العدم بوصفه أداة جمالية لمساءلة الأنساق الثقافية المهيمنة، وكشف التناقضات البنيوية في الوعي الجمعي، مما يمنحه بعدًا نقديًا يتجاوز حدود الشعر إلى فضاء المقاومة الثقافية وإعادة إنتاج المعنى، وتوصي الدراسة بضرورة الاهتمام بشعر "جرص" كونه يمثل عينة أدبية وثقافية لمرحلة مهمة، وصورة شعرية مكثفة عن حياة العراقيين المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: سيمياء العدم، عبد الأمير جرص، النقد الثقافي، سيمياء الثقافة، الشعر العراقي المعاصر.

Abstract:

This study explores the semiotics of nothingness in the poetry of Abdul Amir Jaras, through the lens of cultural criticism, as a semantic and aesthetic phenomenon that reveals profound dimensions in contemporary poetic experience. The research demonstrates that "nothingness" in Jaras's work is not merely an existential concept, but rather a symbolic and cultural structure reflecting the anxiety and alienation of the self within troubled social and political contexts. Using a cultural-semiotic approach, the study uncovers the signs and symbols of absence, death, and ruin, and highlights their renewed semantic energy. The findings conclude that Jaras employs nothingness as an aesthetic tool for questioning dominant cultural systems and exposing structural contradictions within collective consciousness, thereby granting his poetry a critical dimension that transcends artistic expression into the realm of cultural resistance and the re-production of meaning.

Keywords: Semiotics of Nothingness, Abdul Amir Jirass, Cultural Criticism, Semiotics of Culture, Contemporary Iraqi Poetry.

المقدمة:

من الواضح أن تجربة الشاعر العراقي عبد الأمير جرص (1965م – 2003م) لها مجموعة من الميزات التي تضعها بين أهم التجارب الشعرية العراقية الحديثة، إذ إنها تجربة منشغلة بواقع العراق الحديث وتحولاته، فهي تمثل صورة سيميائية لواقع مفرَّغٍ يشير إلى العدم، يمكن البحث عما ورائية عدميته عن طريق قراءة وتحليل ما أنتجته تلك التجربة من نصوص شعرية تتشكل عبر نظام من العلامات، تقف خلفها مجموعة من الأنساق الثقافية.

تنطلق هذه الدراسة من فرضية أن شعر جرص يتشكل من نظام علاماتي يحتاج إلى أكثر من قراءة نقدية، فالوصول إلى ما ورائية ظاهرة العدم في شعره يتطلب مستويين من التحليل، أحدهما نقدي أدبي سيميولجي يبحث في تحليل البنى العلاماتية لظاهرة العدم في شعره، والآخر نقدي ثقافي يبحث في بنى الأنساق المضمرة الفاعلة في تشكيل تلك الظاهرة، لذا فالبحث لا يقف عند حد النقد الأدبي الجمالي لنصوص عبد الأمير جرص بل يتعدى ذلك إلى غير الجمالي.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تتمثل مشكلة الدراسة في الكشف عن طبيعة حضور العدم في شعر عبد الأمير جرص، وكيف تحوّل هذا المفهوم من مجرد رؤية وجودية إلى نسق ثقافي وسيميائي يعبّر عن قلق الذات ومعاناتها. ومن هنا تنبثق التساؤلات الآتية:

1. كيف تجلت علامات ظاهرة العدم في شعر جرص؟
2. ما هي آليات إنتاج علامات العدم وتداولها داخل النص؟
3. ما الأنساق الثقافية الفاعلة في بروز تلك الظاهرة وترسيمها علاماتيًّا في شعره؟
4. ما الدلالة الأدبية الجمالية لسيمياء العدم في شعره؟
5. ما الدلالة الثقافية المضمرة التي تقف خلف أنساق ظاهرة العدم في شعره؟

أهداف الدراسة:

1. الكشف عن تجليات العدم في شعر عبد الأمير جرص.
2. تحليل البنية السيميائية للرموز الشعرية المرتبطة بالعدم.
3. توظيف النقد الثقافي في تفكيك الأنساق المضمرة داخل النصوص.
4. إبراز البعد الجمالي والثقافي للعدم بوصفه أداة مقاومة وإعادة إنتاج للمعنى.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة منهج المزاوجة بين آليات سيمياء الثقافة وإجراءات النقد الثقافي، الذي يجمع بين تحليل العلامات من جهة، وتفكيك الأنساق الثقافية المضمرة من جهة أخرى.

المبحث الأول: المِهاد النظري (بين سيمياء الثقافة والنقد الثقافي)

أعطى النقد الأدبي جلّ اهتمامه لما هو جمالي في النصوص، فبحث النقاد العرب والغرب قديما وحديثا على إثر ذلك في جماليات النصوص الأدبية مبنى ومعنى، وفي الأساليب الفنية المتعالية التي أنتجت تلك النصوص، فتمخضت عن ذلك الكم المتراكم من البحث والتحليل نتائج دلالية ضمنية قيّمة، إلا أن تلك النتائج لم تفارق الجمالي في النص، فقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بعنصر الجمال الذي تفرزه النصوص الأدبية على اختلاف أجناسها، في حين أن الأسرار القابعة في ذاكرة النصوص والمتخفية خلف جمالياتها لم يستطع النقد الأدبي الوصول إليها، وهذا لا ينفي أهمية النقد الأدبي وفاعليته في تحليل النصوص واستخراج الدلالات الجمالية فيها، بل إن البحث في غير الجمالي دليل على أن النقد الأدبي أكمل شوطا مهما في التعامل مع النصوص الأدبية جماليا، إلى الحد الذي يجعلنا نبحث في غير الجمالي، كيف لا وقد استنزف جل مناهجه وآلياته ليسخرها في تحليل النصوص واستخراج مكامن الجمال والإبداع فيها ليحقق في النهاية أهداف المَهمَّة الخاصة التي توكل إليه والمتمثلة في معرفة ما يجعل من الأدب أدبا، تلك المهمة التي وقعت على عاتق النقد الأدبي إلى حين مرحلة النقد البنيوي بوصفها مرحلة النقد الحداثي.

في مرحلة النقد ما بعد البنوي تغيرت الكثير من المفاهيم، وتعددت وجهات النظر للنص الأدبي، ومن بين أبرز السمات الطاغية على ملامح تلك المرحلة واكتسبتها أكثر المفاهيم؛ سمتا التنوع والانفتاح، فالنص في تلك المرحلة، لم يعد نصا مكتفيا بذاته ولا ملتزما بحدود التعالق مع نصوص معينة، وبآليات محددة، وإنما تعداها نحو تقبّل مختلف النصوص شكلا ومضمونا، وبشتى الطرائق، وهذا ما يكسبه تشظيا شكليا ودلاليا يخرجه عن الأطر المفاهيمية التي كان أسيرا لها، ليصبح النص فيما بعد ذا مفهوم منفتح ومتنوع (هارفي، 2005، صفحة 65)، فيُطرح بعد ذلك مفهوم التناص على أنه علامة من علامات ما بعد الحداثة (حمداوي، 2011، صفحة 21). وبما أن النص أصبح متعدد المفاهيم والتصورات والأشكال والدلالات فقد قربه ذلك من أن يكون ممثلا لثقافة ما، لا سيما أن الثقافة سيميائيا "تُعد نصا ذا بنية مركبة" (بريمي، 2018، صفحة 72) يحمل في طياته الجمالي وغير الجمالي.

إن من بين أهم المفاهيم النقدية التي أسهمت في توسيع مساحة اشتغال النقد الأدبي، مفهوم **(سيمياء الثقافة)** أو **(سيميولوجيا الثقافة)**، فهو أشبه بالنافذة العلاماتية التي فتحت الآفاق أمام

دخول ضياء الثقافة إلى الحقل النقدي، ويرى أصحاب هذا المفهوم – من بينهم لوتمان – أن الثقافة "عبارة عن نسق من العلامات السيميولوجية التي تكتسب دلالتها عبر ثقافة ما" (الخليل، 2016، صفحة 201)، فهم لا ينظرون إلى النص بمعزل عن ثقافته، إنما يستعينون بالعلامات الثقافية لتحليل جماليات النصوص من وجهة نظر نقدية أدبية.

من هنا يقف النقد الأدبي منجِزا مهمته في البحث عن الجمالي، لتوكل مهمة البحث عن غير الجمالي إلى ما يسمى **بالنقد الثقافي**، الذي سيتضح فيما بعد بأنه فرع من فروع الدراسات الثقافية.

يسند الكثير من الباحثين والنقاد من بينهم الدكتور عبد الله الغذامي ظهور الدراسات الثقافية إلى زمن تأسيس مدرسة بيرمنجهام عام 1964م بوصفها البداية الرسمية لذلك النوع من الدراسات (الغذامي، 2005، صفحة 19) ، والحقيقة أن الدراسات الثقافية لم تظهر من تحت عباءة واحدة، بل هي نتاج لجهود فردية من جهة، وجماعية من جهة أخرى، تمثلت الجهود الفردية في كتاب "أسطوريات" لرولان بارت حيث كتبه عام 1957م، وكتاب "الثقافة والمجتمع" لرايموند وليامز والذي كتبه عام 1958م، بينما تمثلت الجهود الجماعية بمدرستي فرانكفورت الألمانية والتي تجسد جل جهدها في كتاب (جدل التنوير، شذرات فلسفية) لهور كهايمر وأورنو، الذي تم نشره في عام 1944م، وكذلك مدرسة بيرمنجهام الإنجليزية التي تأسست عام 1964م على يد أشهر كتّابها دريدا وفوكو (السلطاني، 2021، الصفحات 21–26). ولا يهمنا هنا دراسة السيرورة التاريخية للدراسات الثقافية، فقد تصدى لها الكثير من النقاد والباحثين، لكننا ملزمون بمحاولة تقديم فهم معين لما أنتجته الدراسات الثقافية للتعامل مع النص الأدبي على نحو خاص، أي النقد الثقافي والذي سنصل من خلاله إلى الدلالة الثقافية للتناص في شعر جبار الكواز.

يقدم الدكتور الغذامي مشروعه في النقد الثقافي متبنيًّا رأي "فنسنت ليتش" في أن هذا المصطلح مرادف لمصطلحي ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية (الغذامي، 2005، صفحة 31)، وبناء على هذا يطرح ثلاثة أمور يقوم عليها النقد الثقافي، وهي:

1- لا يلتزم النقد الثقافي بحدود التصنيف المؤسساتي للنص الجمالي بل ينفتح على مجال عريض من الخطابات أو الظواهر.
2- يستفيد النقد الثقافي من مختلف المناهج النقدية الأدبية التي من شأنها أن تقدم تحليلا وتصورا معرفيا كتأويل النصوص ودراسة خلفياتها التاريخية.
3- يتخذ النقد الثقافي من مقولة بارت "النص ولا شيء خارج النص" بروتوكولا للبعد النقدي الثقافي ما بعد البنيوي في التركيز على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح النصوصي (الغذامي، 2005، صفحة 32).

ويقترح الغذامي عددا من التعديلات على الأداة المستعملة في النقد الأدبي الجمالي لتكون فاعلة في النقد الثقافي، فيقدم تحت مظلة التعديل عنصرا سابعا لمخطط "ياكوبسون" الذي سعى الأخير من خلاله إلى الكشف عن أدبية الأدب، بينما يسعى الغذامي عبر عنصر **(النسق)** (الغذامي، 2005، الصفحات 63-64) إلى الكشف عن الوظيفة الثقافية النسقية المضمرة والمتحكمة في النصوص.

ثم يتحدد مفهوم النسق عنده بوظيفته وليس عبر وجوده مجردا، كما يشترط وجود نسقين أو نظامين أحدهما ظاهر والآخر مضمر في نص واحد أو في ما هو بحكم النص الواحد، وأن يكون النص الحامل للنسقين جماليا وجماهيريا، وهو بهذا لا يعني النص المعترف به من قبل المؤسسة النقدية بل ما كان جميلا من وجهة نظر الرعية الثقافية (الغذامي، 2005، الصفحات 78-81)، بينما يرى الدكتور العراقي عبد العظيم السلطاني أن في الشرطين تضييق لمساحة اشتغال النقد الثقافي، الأمر الذي يعكس تضييقا لأهدافه وغاياته (السلطاني، 2021، صفحة 34)، وقد قدم نماذج تطبيقية لإثبات إمكانية اشتغال النقد الثقافي على النصوص المؤسساتية والنصوص غير الجمالية.

يطرح الغذامي عددا من التصورات الملحقة بمفهوم النسق ووظيفته، منها **المجاز الكلي** حيث ينأى به بعيدا عن القيمة البلاغية للمجاز إلى القيمة الثقافية، فالمجاز الكلي لا يقوم على مجرد ازدواج دلاليّ في تحويل معنى معين إلى معنى آخر، في حدود المفردة أو الجملة، بل أصبح كليا على مستوى نسقين متناقضين أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ثم يقترح مصطلح **التورية الثقافية** بوصفها قيمة ثقافية مختلفة عما كانت عليه ضمن الأطر البلاغية، لكنه يحتفظ بالبعدين القريب والبعيد للتورية إلا أن مفهومها يتوسع لديه ثقافيا ليشترط أن يكون أحدهما مضمرا وليس في وعي الكاتب بل تشكل عبر المتراكمات الثقافية، أما الآخر فيكون ظاهرا وفي وعي الكاتب بينما يكون المضمر أكثر فاعلية، ويقترح الغذامي ما يصطلح عليه أيضا **بالجملة الثقافية** ليفرق بينها وبين الجملة الأدبية التي تستند إلى القيم البلاغية والجمالية، بينما تستند الجملة المقترحة إلى الفعل الثقافي المضمر ووظيفته النسقية في اللغة، ليصل إلى وجود **مؤلف مزدوج**، أي أن النص مسند إلى مؤلفين اثنين أحدهما المؤلف المعهود والآخر هو الثقافة، وهذا ما يفضي إلى وجود دلالة مختلفة عن الدلالة الأدبية التي تحملها النصوص بوصفها نصوصا جمالية، ليبحث النقد الثقافي في **الدلالة النسقية** للنصوص، فتتفرع الدلالة على وفق ذلك إلى: صريحة وهي دلالة توصيلية، وضمنية وهي دلالة أدبية جمالية، ونسقية وهي دلالة ذات بعد ثقافي (الغذامي، 2005، الصفحات 67-75)، وبما أن الدلالة التوصيلية تتحقق بديهيا في الواقع اللغوي الاعتيادي فلا داع للخوض فيها، لذا تتجه هذه الدراسة نحو البحث عن دلالتين: أحدهما ضمنية أدبية جمالية يصل إليها عن طريق (سيمياء الثقافة) للكشف عن نسق العلامات الثقافية الفاعلة في بناء النص الشعري عند جرص، والأخرى دلالة نقدية ثقافية يصل إلى عبر الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة والمتخفية خلف الدلالة الضمنية، لذا فالبحث لا ينفي

أهمية النقد الأدبي بل يقر بقيمته المعرفية التي يقدمها عن طريق تحليل البنى السيميولوجية في محاولة لتمريرها تحت مجهر النقد الثقافي للكشف عن الأنساق الثقافية الفاعلة في تشكيلها، ليصل بالنتيجة إلى الكشف عن سيمياء ظاهرة العدم في شعر جرص والدلالات التي تقف خلف أنساقها الثقافية المضمرة.

المبحث الثاني: البنية السيميائية للعدم

إن المنظومة المفاهيمية للسيميائيات تقدم كمًا من المفاهيم التي تتفق أو تختلف على المستوى الخاص، لكن معناها العام يشير إلى أن السيمياء هي علم دراسة العلامات (بوفلاقة، 2023، صفحة 25)، من بينها العلامات الثقافية، فمهمة السيمياء هنا تتلخص في الكشف عن البنية العلاماتية للعدم في شعر جرص.

أما مفهوم العلامة، فهي وحدة ثنائية، تتكون من الدال والمدلول، والدال هو الأمر المكتوب أو المنطوق الذي يستدعي إلى ذهن المتلقي مفهوما محددا، بينما المدلول هو ذلك المفهوم الذي يستدعيه الدال، أي إن الدال أمر محسوس كأن يكون كلمة أو صوت أو صورة، بينما المدلول هو معنى أو مفهوم يحضر في الذهن (عبد الله، 2024، الصفحات 38–39)، وما ينتج عن اتحاد الدال مع المدلول يُطلق عليه الدلالة.

ونحن هنا، إذ نحاول الكشف عن البنية العلاماتية للعدم في شعر جرص، فإننا نتتبع العلامات التي تشير إلى العدم لغرض مقاربتها وتحليلها ومعرفة مدى هيمنة بعضها على بعض، لكي نصل بالنتيجة إلى الدلالة التي تقف خلف تلك البنية.

أولاً: العلامة المركزية (الموت)

يحضر الموت بوصفه علامة مركزية دالة على العدم في شعر جرص، إذ يقول في أحد نصوصه (جرص، 2020، صفحة 128):

الموت يا أُخت صديقي

الموت.. ابني

إنَّه ما تجهضين

إنَّه ما تحبلين به

حاذري

من أن تعيشي جيدًا

كي لا تموتي جيدًا جدًا

إن علامة الموت في هذا النص لم تعد علامة بيولوجية اعتيادية، بل هي واقع ومستقبل محتوم إلى الحد الذي جعله يوميا، ومتوقعا بشتى الطرائق، فهو متسلل إلى العائلة، ومتناقل بين الأسر، وهو ما تجهضه النساء وما تحبل به، وبالتالي لا مهرب من الموت، لأنه متأصل ومتجذر في كل عائلة، فالموت هنا علامة دالة على عدم وجود الحياة.

ثم نلحظ تلك الوصية – حاذري – التي لا جدوى منها لأنها في النهاية تفضي إلى الموت، فهو يحذرها من العيش كما يحذرها من الموت، وهي دلالة تشير إلى انعدام جدوى الحياة من منظور النص.

إن هذا التحول في علامة الموت يجعله خارج الأطر الطبيعية لا بوصفه (نهاية الحياة)، بل بداية الحياة بدلالة (إنه ما تجهضين)، ومستقبل الحياة بدلالة (إنه ما تحبلين به).

إن الجملتين الشعريتين الأخيرتين في المقطع الشعري فيهما دلالة تستهوي وقوف القارئ، فالمعلوم أن هناك عيشا جيدا وغير جيد، وهذه المستويات مختلفة من فرد إلى آخر أو من مجموعة إلى أخرى وهذا ما يمكن أن نقرأه خلف عبارة "من أن تعيشي جيدًا"، لكن: هل هناك موت جيد وغير جيد؟!

إن ما تشير به عبارة "من أن تموتي جيدًا جدًا" غريب بعض الشيء ويحمل رؤية مختلفة، فالنص عن طريق تلك العبارة يخرج بدلالة علامة الموت نحو دائرة أوسع، نحو طرائق ومستويات مختلفة للموت، حتى إن علامة (جيد) في عبارة التحذير من العيش، وعلامة (جيد جدًا) في عبارة التحذير من الموت، لهما دلالة سيميائية ثقافية هي أن مستوى الموت يرتفع بارتفاع مستوى العيش، وهي قريبة من أن تكون ثقافة يعرفها المتلكم والسامع، وبالنتيجة نكون أمام مجموعة من الدلالات السيميائية الثقافية، من بينها، أن الموت لا يقابله سوى الموت لأن الحياة شبه معدومة، ثم إن هذا الموت له مستويات وطرائق مختلفة يعرفها المجتمع وتعايش معها ثقافيا واجتماعيا، وهذا التشظي في المستويات والطرائق للموت يفضي إلى امتدادات كبرى لعدم تحققه عبر علامات أخرى مرتبطة به، من شأنها أن تساعدنا في الكشف عن البنية العلاماتية للعدم، وهي ما سنتحدث عنه في المحور القادم.

ثانيا: الامتدادات الكبرى للعدم

إن علامة الموت التي أشرنا إليها بوصفها علامة مركزية دالة على انعدام الحياة يمكن أن نتتبع من خلالها الامتدادت الكبرى للعدم، ونقصد بالامتدادات الكبرى كل ما يمكن أن يمثل ذلك العدم.

1. (المكان):

إن امتداد العدم إلى المكان يجعلنا نقف عنده، فهو "كيان من الفعل المغيّر والمحتوي على تاريخ ما" (النصير، 1986، صفحة 8)، بمعنى أنه علامة يمكن قراءة ما وراءها من دلالات، وقد قدم "غاستون باشلار" رؤية بارزة في توصيفات المكان، فالمكان عنده لم يعد ذلك المفهوم العادي البسيط الذي يمكن أن يتجلى في كلمة (بيت)، إنما هو صورة شعرية معقدة (المعمري، 2022، صفحة 65)، لذا فالمكان بحسب هذين المفهومين لم يقف عند حدوده الجغرافيَّة المادية، بل يتعداها إلى ما يمكن أن يرتبط به من دلالات بوصفه علامة حاملة للدلالة.

والمكان كغيره يتأثر بما يحدث داخل حيزه، فهو عرضة لتأثيرات العدم، ويمكن أن يؤثر العدم في ملامحه وتوصيفاته، وبما أن البحث يسير على وفق أطرٍ منهجية فإن مسارات المكان ستحدد بحسب تأثره بعلامات العدم ودلالاتها، ومن بين النصوص التي نقف عندها في هذا الصدد، هذا النص الذي يقول فيه جرص (جرص، 2020، صفحة 34):

أنشُّ الأحلام

بيتي محاطٌ بالحبشيين

والنوافذ مغلقة

كفم

لو تبنينا مفهوم باشلار للبيت بوصفه مكانًا أليفا (باشلار، 1984، صفحة 35)، فإننا نقف عند البيت في المقطع الشعري السابق لجرص بوصفه علامة مكانية لها علاقة بالعدم إلى جانب العلامات الأخرى التي يطرحها النص، إننا نلحظ عدم استقرار الألفة في هذا البيت فهو محاط بالحبشيين، وعلامة (الحبشيين) تستجلب معاني النيل ممن يسكن البيت، وهو ما يذكرنا بالعلامة المركزية (الموت) الدالة على انعدام الحياة، كما أن علامة إغلاق النوافذ وتشبيهها بإغلاق الفم، هي علامة من شأنها أن تشي بالقلق والخوف والصمت داخل البيت، الأمر الذي يفضي إلى انعدام الأمان والألفة، ثم إن الجملة الشعرية "أنش الأحلام" بوصفها علامة مرتبطة بانعدام الأمان والاستقرار، تشي بانعدام تقبل الشاعر لأحلامه، فهو يطردها عن بيته كي لا تكون سببًا في أن يلقى حتفه على يد الحبشيين، هذه المعاني تثبت خطورة الواقع خارج البيت، فهو واقع مأزوم إلى الحد الذي يجعله خائفا من أن يحلم.

إن عدم الاستقرار لم يقتصر في نصوص جرص على مكان محدد، بل يمتد من أضيق علامة مكانية (البيت) إلى أوسع علامة مكانية يمكن أن تؤثر في حياة الإنسان، أي الوطن، وما بين هاتين

النقطتين ما هو إلا واقع متكرر يعاد إنتاجه عبر العدم، فالوطن بوصفه علامة مكانية، يقدم الشاعر رؤية فريدة عن واقع الوطن، ليشبهه بالإنسان، وتحديدًا يشبِّهه بنفسه، فيقول (جرص، 2020، صفحة 62):

حبيبي، أما زلتَ العراق تحبّه

أليس بكافٍ

ما ترى

من متاعبِ

فقلتُ: شبيهي بالأسى وشبيهُهُ

كما أنه بالجوع

والموت

صاحبي

إذا سرت يوما والعراق بصحبتي

يظنون من لم يعرفوه

أقاربي..

إن جرص في هذا النص الشعري، لم يقف عند حدود التوصيف للوطن بوصفه مكانًا اعتياديا، بل هو يؤنسن ذلك المكان، ليجعله يشعر بالأسى والجوع والموت كما يشعر الإنسان بهم، ويشهد أزمة الواقع مثلما يشهدها الساكن فيه، وهو ما يدلل على أن المعاناة جماعية شاملة لكل زوايا الوطن، ولا تقتصر على فرد دون آخر.

2. **الصمت (امتداد العدم إلى اللغة):**

لا شكَّ في إن الواقع الذي يدب فيه الخوف والقلق، وتذهب فيه ملامح الأمان يدعو الإنسان إلى الحذر من أقواله وأفعاله التي يمكن أن تقربه من الخطر، ومن أوضح صور التأثر بالواقع هو الصمت، ولكن هل للصمت دلالة ؟، نعم، فالصمت أحيانًا يحمل من الدلالات ما لا يحمله الكلام، فقد يبدي الإنسان رأيه عن طريق صمته، أو يعبر عن قبوله من خلال صمته، ولكن أي صمت هذا الذي يصبح علامة يمكن أن تقف خلفها الدلالات السيميائية والثقافية، يقول جرص في أحد نصوصه (جرص، 2020، صفحة 98):

بإمكان العلماء أن يحسبوا موتي وذلك بأن يعودوا به إلى عناصره

الأولية...

إلى الجذور الأولى للصمت، ثم يضربوه في عدد سنوات اليأس

أي قبل أن ينهار الأمل على رؤوسنا ورؤوس قصائدنا الجميلة

ينبني هذا النص على مجموعة من العلامات المترابطة في دلالتها، من بينها نلحظ حضور العلامة المركزية (الموت)، ثم العلامات الأخرى مثل (الصمت) و(اليأس) و(انهيار الأمل)، فهي علامات مترابطة، فالصمت علامة تستجلب معنى انعدام الكلام، وتؤكدها علامة اليأس التي تشي بعدم الجدوى من الكلام، بسبب انهيار الأمل.

إن الغريب في هذا النص كونه يقدم معادلة لحساب الموت عبر امتداد الصمت لسنوات طوال، تولد على إثرها اليأس وانهار الأمل في نهايتها، وهذه الدلالة تشي بواقع مأزوم صعب التغيير، تتحدد بحسبه حياة الإنسان في حقبة زمنية معينة ومكان معين.

ج- الغياب:

لقد عُنيت ظاهرة الغياب في الشعر العراقي الحديث بمكانة نقدية وبحثية قيمة، وقد أجمعت كثير من الدراسات على أن مفهوم الغياب يتحدد بمعرفة الحضور، والعكس صحيح، فعلى "المستوى الدلالي كلاهما مكملًا للآخر ومشكلاً لقيمته وأثره الدلالي" (كزيز، 2022، صفحة 401)، لكن الغياب في شعر عبد الأمير جرص له خصوصية من ناحية تعلقه بالعدم، إذ يقول جرص في أحد نصوصه (جرص، 2020، صفحة 79):

بالقطار

سافر أخي

إلى نفسه

قلت له: يا أخي

إلى أين ستمضي

والجهات أربع

أربع

لا أكثر

إن هذا النص يقدم رؤية شعرية في عدم قدرة الإنسان على الغياب، أي على الهروب من واقعه، فهو يسافر إلى نفسه لأن الجهات الأربع تؤدي إلى نفس النتيجة التي يعيشها، ثم يمتد ذلك الغياب ليتعدى مسألة الفرد والجماعة، فنكون أمام كسر لأفق التوقع، فيطرح النص رؤية أكبر وأكثر وقعا، فيقول جرص:

مرة استيقظنا

فلم نجد الوطن

قيل لنا: لمَّ الوطنُ جميع حاجاته

جمعها شجرةً

شجرةً

ونهرًا

نهرًا

ورحل بعيدًا

إن هذا النص يقدم رؤيةً غيابية أوسع من النص الذي سبقه، إذ إنه يوضح بأن المعاناة تسري على الجماعة مثلما تسري على الفرد، كما أن ذلك الغياب لا يتحدد بغياب الإنسان فقط، إنما يتعداه لغياب الطبيعة، بدلالة "شجرةً شجرةً، و"نهرًا نهرًا"، الأمر الذي يفضي إلى غياب الوطن من وجهة نظر النص.

المبحث الثالث: الأنساق الثقافية المضمرة في خطاب العدم

أولاً: السلطة

يشيع استعمال لفظة السلطة للتعبير عن دلالات مختلفة، لكن أقرب ما يمكن أن يقدم فائدة لبحثنا هو أن السلطة تعني القَهْر (ابن منظور، 2003) أما في الاصطلاح فكثيرًا ما يرتبط هذا اللفظ بمفهوم الدولة على أنها قوة يخلقها وعي معين ليوكل إليها مهمة تأمين ديمومة الجماعة وتقديم ما تعده خيرا لها إلى الحد الذي بمقدورها أن تفرض ذلك على الجماعة (بوردو، 2022، الصفحات 18–20)، والواضح أن هذا المفهوم للسلطة يجعلها محددة بقوانين وأمكنة وأزمنة معينة، ومسخّرة لصالح جهة معينة، بينما يطرح فوكو مفهوما مغايرا للسلطة يتمثل في نقض تلك المركزية التي يسند إليها التحكم في الواقع المعنوي والمادي للشعوب، فالسلطة عنده لم تعد ملكية لأحد، وغير منحصرة في سياسة معينة، أو مكان وزمان محددين، ولا تابعة لجهة ما وإنما هي نتاج جماعي لاستراتيجيات

وبؤر ودواليب مختلفة يقع تأثيرها على الحاكم والمحكوم (دلوز، 1987، الصفحات 31–36)، بمعنى أن السلطة نفسها يمكن أن تخضع لسلطة أخرى، وهذا المفهوم يفسح المجال أمامنا للبحث عن تسرب أنساق السلطة وفاعليتها في تنشيط خطاب العدم في شعر عبد الأمير جرص.

إن نسق السلطة في خطاب العدم عند جرص يبدو مقترنا بعلامات من شأنها أن ترشدنا إلى افتراض دلالة ثقافية، لكن ثمة علامة زمنية لا بد من الوقوف عندها لوضع المحددات التي تساعدنا في تشخيص السلطة بوصفها نسقا ثقافيا مركزيا يمكن أن يتحكم ويؤثر بالأنساق الأخرى، ونعني بالعلامة الزمنية، الزمن الذي عاشه عبد الأمير جرص، والزمن الذي كتبت خلاله نصوصه، والزمن الذي يعنيه في نصوصه، وهذه أولى العلامات الزمنية التي تساعدنا في ذلك، إذ يقول جرص في هذا النص (جرص، 2020، صفحة 167):

في العام 1965 أطلق أبي عليَّ اسمًا، لقد صدقت الاسم

عشت على أنني "هو" وعاش على أنه "أنا"

إن الشاعر في هذا النص يقدم علامة زمنية ترشدنا إلى زمن ولادته، وبالرجوع إلى مقدمة أعماله الشعرية نلحظ ولادة جرص عام 1965م في بغداد، ومن أوضح العلامات التي ترشدنا إلى الزمن في شعره، هذا النص الذي يقول فيه (جرص، 2020، صفحة 164):

إنَّني أمارس حياتي على أنها هواية

أو نزوة

لم أكن قطُّ جادًا

في عام 1995 دخلت الثلاثين

هكذا

أي كما لو أني أدخل حانة

ينبني النص على علامة زمنية تساعد في تحديد أهمية زمنية النص والشاعر، وهي أن عبد الأمير جرص دخل الثلاثين من عمره عام 1995م، إن النص يوحي بعدم اكتراث جرص لعمره، فهو دخل الثلاثين مثل دخوله إلى الحانة، وهذا عدم الاكتراث يشي بعدم توفر ما يدعوه للاهتمام بحياته، فها هو يعرف حياته مرة أخرى ضمن النص ذاته الذي يحمل عنوان (تعريفات) (جرص، 2020، صفحة 163) قائلاً:

قد لا تكون بالأهمية التي أتحدث، كما أن الموت ليس

مهمًّا (بالمعنى العدمي لكلمة مهم) إنّني ما إن أحصل على

شيء حتى أفقده – وهذا حتمي وغير محزن على الإطلاق–

إذ علي أن أحصل على كل ما سأفقده

مثلما عليّ أن أفقد

كل ما سأحصل عليه

إن هذا النص لا يثبت عدم اهتمام جرص بحياته فحسب، بل عدم اهتمامه بالموت، وهي دلالة على حال غريبة يصلها الإنسان، في واقع تتساوى في نظره أهمية الحياة في مقابل عدم أهمية الموت، فيصبح غير مكترث لموته مثلما غير مكترث لحياته، ثم يقدم الشاعر في نصه الأسباب التي دعت لذلك، من بينها أنه سيفقد كل ما يمكن أن يحصل عليه.

ورُبَّ سائل يسأل، هل لهذه النصوص دلالة ثقافية مرتبطة بالسلطة؟، فنقول: من بين أهم الدلالات التي يمكن تحديدها عن طريق النصوص السابقة؛ أن السلطة التي يعنيها الشاعر في نصوصه يمكن أن نحدد بدايتها من ولادته إلى وفاته، إذ تشير مقدمة أعماله إلى أنه توفي على إثر حادث في كندا عام2003م، ثم إن الدلالة الأخرى والتي لا تقل أهمية عن الأولى هي أن أهمية الحياة معدومة عند جرص.

ونحن هنا إذ نبحث في نسق السلطة بوصفه نسقًا ثقافية مركزيا فاعلًا في تنشيط خطاب العدم، فإننا معنيون بتقديم توصيفات لتلك السلطة عن طريق الحفر في الدلالة الثقافية لنصوص جرص، وقد قدم جرص في كثير من نصوصه علامات ودلالات ثقافية يمكن عن طريقها الكشف عما ورائية خطاب العدم في شعره، من بينها، نصه الذي يقول فيه (جرص، 2020، صفحة 234):

اليأس الذي هو شعب برمّته (شعب من المقهورين)

هم في رأي الخليفة غنم

وفي رأي الراعي أصنام تُدعى لفكّ ارتباطها بالأمل

الأمل الذي يستأصله الخليفة على مرأى الراعي ومسمعه..

شعب ينقلب إلى خراف، أو خراف تكون شعبًا لتنساق إلى علفها

في الماضي أو تنساق إلى علفها في الحاضر

تنساق

إلى اللا مستقبل

لقد أشرنا في حديثنا عن الامتدادات الكبرى للعدم إلى علامات بارزة في شعر جرص، من بينها علامة (انعدام الأمل)، و(اليأس)، لكننا في حديثنا السابق كنا معنيين بتحديد العلامات، بينما هنا نقف للبحث عما وارئية انعدام الأمل وكثرة اليأس، لنجد أن الشعب برمته عبارة عن يأس من وجهة نظر جرص، ثم يقدم توصيفًا لهذا الشعب بأنه (شعب من المقهورين)، تنظر له السلطة على أنه غنم، لكن ما علاقة هذا باليأس والأمل، في الحقيقة أن النص يقدم رؤية لها خصوصية، وهي أن السلطة وراء كل ذلك، فالعلامات مثل (الخليفة) و(الراعي)، هما علامتان مستعارتان من التاريخ ليختبئ الشاعر وراءهما، ثم إننا نلحظ علامة (يستأصله) التي يعني بها قطع الأمل، ومعلوم أن هذه اللفظة تستعمل غالبا في التعامل مع الأمراض، فأي سلطة وأي ثقافة تلك التي تعدّ الأمل مرضًا، وهذه العلامة تفسر سعي السلطة في إكثار اليأس لدى الشعب، لتجعله متساويًا في كل الأزمنة (الماضي/ الحاضر/ اللامستقبل)، فلا أمل لذلك الشعب تحت ظل تلك السلطة.

ويستمر جرص في تقديم التوصيفات السلطوية التي تغذي خطاب العدم في شعره، فنقف عند نص آخر لا يقل أهمية عن النص السابق، إذ يقول فيه (جرص، 2020، صفحة 92):

إلهي

لو تداركت الموقف

وصنعت من الإمبراطور رجلاً آخر

رجلاً

لا يفضِّل الحروب

على قاعات الدروس والامتحانات

يتجلى في هذا النص نسق السلطة بدلالة علامة "الإمبراطور"، هذه العلامة تحمل دلالة التمويه على الشخصية المقصودة، فلم يشع استعمالها في تلك المدة، بينما الشاعر يستعملها ليقصد بها شخصًا آخر، قد يكون هرم السلطة في تلك الحقبة.

إن الذي يهمنا في هذا النص هو أن نسق السلطة فاعل في تنشيط نسق آخر، وهو تفضيل لحروب على العلم، لذا فالنص يقدم رؤية السلطة في ذلك الحين، الأمر الذي يشير إلى أن السلطة متوجهة نحو عسكرة المجتمع بدل تعليمه، فوجود الفكر السلطوي الحربي نتج عنه شبه انعدام للفكر التعليمي.

ثانيًا: الهوية

بما أن الهوية تعني "أن يكون الشيء هو وليس غيره" (حنفي، 2012، صفحة 10)، فهي مجموعة من السنن والصفات والسلوكيات التي تضعها ثقافة معينة تجعلها متسقة بمجتمع دون آخر، فهي خليط من الأنساق المركبة والمعقّدة تتعدد وجوهه وأطواره وأهواؤه، وتتشابك فيه الطقوس والعقائد (حرب، 2008، صفحة 201)، وبما أن الهوية متأثرة بمجموعة من المتغيرات منها الواقع الثقافي فإننا نرصد بعض الأنساق التي تؤثر في الهوية العراقية، وتغذي خطاب العدم في شعر جرص، من بينها نصه الذي يقول فيه (جرص، 2020، صفحة 37):

كثيرًا ما نختلف

على لون القميص

واسم الذئب

الذي لم يأكل يوسف

يطرح النص بعض العلامات المتعلقة بقصة نبي الله يوسف (عليه السلام)، وهي (قميص) و(الذئب)، لكن الملفت للنظر أن عبد الأمير جرص يطرح تلك العلامات الهامشية في تلك القصة على أنها مركزية في مجتمعه، فانعدام المركز، والاهتمام بالهامش هي سمة مجتمعية عند مجتمع الشاعر، فيصور لنا المجتمع على أنه كثير الاختلاف حول تلك المسائل الهامشية، في حين أنه يترك المسائل المركزية.

ثم نقرأ لجرص نصًا آخر يقول فيه (جرص، 2020، صفحة 88):

أيها الرب الجنوبي

يا رفضنا العالي..

أنت أكبر من جوامعهم

وأكبر من مآذنهم

وأكبر

من مناراتٍ حفظنا صمتها

عن ظهر قلب...

في هذا النص الذي يبدي اهتماما واسعًا بجنوب العراق، الجنوب الذي عاش واقعًا مؤلمًا في تلك الحقبة، فالنص يعطي للجنوب خصوصية تميزه عن غيره، بدلالة خطاب الربوبية "أيها الرب الجنوبي"، ذلك لأنه رفض سياسة السلطة آنذاك، ثم يطرح النص في مقابل ذلك علامة "الصمت" التي يسندها إلى المنارات، أي إن تلك المنارات لم تكن معنية بما يعاني منه الجنوب، إن الانقسام يبدو جليا في بنية الهوية العراقية آنذاك، لأننا نفترض هناك واقعًا مختلفًا على أقل تقدير في الشمال، وهذا ما يعزز ظاهرة الاختلاف في الهوية العراقية وتوجهاتها واهتماماتها.

لقد تأثرت أنساق الهوية فيما تمارسه السلطة آنذاك، فظهر ما يمكن تسميته بعدم الاعتراف بالآخر نتيجة سياسة القمع المتبعة، وسياسة الرأي القسري، وسياسة التعايش مع الموت، كل هذا أثر في تشظي الهوية، فكان الواقع صالحًا لتنشيط خطاب العدم أو الشعور بالعدم، لذا فالخيارات المتاحة صعبة أمام من يخالف السلطة، وهي إما التعايش مع الموت، أو الحرب، أو الهروب والغياب، إلى الحد الذي يجعل الوطن غائبًا في رأي عبد الأمير جرص: إذ يقول في نصه (جرص، 2020، صفحة 81):

أوطانٌ كثيرة، لم تجد مكانًا

أوطان كثيرة تفكر في الهروب

من الخارطة

إن هذا النص المكثف يتغذى على نسق ضياع الهوية الوطنية وتشظيها، وهذا التعبير ينطبق على محنة هوية الفرد الوطني، ومحنة الهوية الوطنية نفسها، ومحنة الهوية العربية أيضا، فهو يقدم توصيفًا للواقع العراقي والعربي آنذاك، إذ هو واقع مأزوم لا يعطي خيارًا سهلًا للفرد أو الجماعة، لذا فلا خيار أمام الفرد أو الجماعة سوى التعايش مع الموت والصمت واليأس أو الهروب.

النتائج:

تبيّن من خلال هذه الدراسة أن مفهوم العدم يشكّل بنية سيميائية وثقافية مركزية في التجربة الشعرية لعبد الأمير جرص، فهو رؤية وجودية وثقافية تعكس أزمة الذات العراقية والعربية في سياقها التاريخي والسياسي والاجتماعي. وقد أظهر التحليل السيميائي أن العدم لم يكن مجرد فكرة ميتافيزيقية، بل تحوّل في شعره إلى بنية علاماتية تستثمر صور الموت، والغياب، والخراب، والصمت، لتفكيك أنساق ثقافية راسخة.

كما كشفت الدراسة، في ضوء النقد الثقافي، أن شعر جرص يتقاطع مع البنية العميقة للوعي الجمعي الذي يعاني من الإقصاء والتهميش والخذلان، فجاءت نصوصه مقاومة للخطاب المهيمن عبر تفجير اللغة وإعادة إنتاج الرموز بطريقة تحفر في الذاكرة الجمعية وتفضح تناقضاتها.

وأثبتت النتائج أن سيمياء العدم عند جرص تحمل دلالتين، أحدهما جمالية، تتجلى في صياغة صور شعرية مدهشة تستند إلى خطاب العدم عن طريق توظيف العلامات ذات الدلالة المفتوحة، والأخرى نقدية ثقافية تتمثل في مساءلة الأنساق السلطوية والثقافية التي تصادر حرية الفرد وتدفعه نحو تبني الخطاب العدمي.

إن سيمياء العدم في شعر عبد الأمير جرص ليست انعكاسًا للفراغ أو العدمية السلبية، بل هي أداة مقاومة ثقافية تكشف هشاشة الواقع، وتعيد طرح الأسئلة حول المعنى والهوية والمصير.

التوصيات:

1. توسيع دائرة الدراسات السيميائية الثقافية لتشمل شعراء آخرين من العراق والعالم العربي، بما يكشف عن تنوع تمثلات العدم والغياب في النص الشعري المعاصر.
2. الانفتاح على مقاربات نقدية متعددة، مثل: النقد النفسي، النقد الاجتماعي، ونقد ما بعد الكولونيالية، إلى جانب النقد الثقافي، لإثراء القراءة وتوسيع أفق التحليل.
3. إنشاء دراسات مقارنة بين تجربة عبد الأمير جرص وتجارب شعرية عربية أو عالمية عالجت موضوع العدم، لبيان الخصوصية الأسلوبية والدلالية في شعره.
4. إعداد دراسات تطبيقية في حقل التعليم الجامعي تعتمد نصوص جرص نموذجًا لتدريس النقد الثقافي والسيميائيات للطلبة، لما تحمله من عمق فكري ورمزي.
5. تشجيع الأبحاث البين–تخصصية التي تربط بين الأدب والفلسفة وعلم الاجتماع، للكشف عن الأبعاد الوجودية والثقافية للعدم في الشعر العراقي المعاصر.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور (2003): لسان العرب، بيروت: دار الكتب العلمية.
- حمداوي، جميل (2011): نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، المغرب: دار الألوكة.
- بوردو، جورج (2022): الدولة، ترجمة: سليم حداد، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- دلوز، جيل (1987): المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة: سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- حنفي، حسن (2012): الهوية، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

- هارفي، ديفيد (2005): حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة: محمد شيا، بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- الخليل، سمير (2016): دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، إضاءة توثيقية للمفاهيم المتداولة، بيروت: دار الكتب العلمية.
- جرص، عبد الأمير (2020): الأعمال الشعرية الكاملة، بغداد: دار سطور للنشر والتوزيع.
- السلطاني، عبد العظيم رهيف (2021): نقد النقد الثقافي، رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي، المجلد 1، العراق: جامعة الكوفة، دار الرافدين.
- بريمي، عبد الله (2018): السيميائيات الثقافية، مفاهيمها وآلياتها واشتغالاتها، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- الغذامي، عبد الله محمد (2005): النقد الثقافي، دراسة في الأنساق الثقافية العربية، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- نجم، عبد الله؛ السيد، عبد؛ كزيز، نائل عبد الحسن (2022): جدلية الغياب، دراسة في التضادات الشعرية، نصوص رعد زامل اختيارًا، مجلة أبحاث ميسان، ص401.
- حرب، علي (2008): خطاب الهوية، سيرة فكرية، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- باشلار، غاستون (1984): جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- حسن عبد الله، محمد (2024): النقد الأدبي المعاصر، أسسه الجمالية وتطبيقاته العملية، وكالة الصحافة العربية.
- بوفلاقة، محمد سيف (2023): السيميائيات وقضايا النص الأدبي، الأردن: دار الجنان للنشر والتوزيع.
- النصير، ياسين (1986): إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية.
- المعمري، يوسف سليمان (2022): سيمياء المكان في قصيدتي العمود والنثر، عمان: الجمعية العمانية للكتّاب والأدباء.